

عبد الخالق خميس علي التميمي التاريخ ال عباسي

النهضة الفكرية في عصر المأمون :

اقترن اسم المأمون بتلك النهضة الفكرية التي ازدهرت في العصر العباسي الاول بوجه عام وفي عصر المأمون بوجه خاص وذلك لأنه شارك فيها بنفسه حتى قيل انه أعلم الخلفاء بالفقه وعلم الكلام وانه فيلسوف الخلفاء وحكيم نبي العباس .

اهتم المأمون بجمع تراث الامم القديمة الاخرى وخاصة التراث اليوناني ، فأرسل بعثات من العلماء الى القسطنطينية وجزيرة قبرص للبحث عن نفائس الكتب اليونانية ونقلها الى بيت الحكمة في بغداد . وكان هذا البيت بمثابة معهد علمي يضم مكتبة لنسخ الكتب ، وداراً لترجمتها الى العربية ، وكان له مدير ومساعدون ومترجمون ومجلدون للكتب . وقد بلغ من شغف المأمون بالثقافة الاغريقية أن أرسطو ظهر له في المنام مؤكداً له أنه لا يوجد تعارض بين العقل والدين . ولعل هذا المنام يتصل اتصالاً وثيقاً بسياسة المأمون نحو تأييد طائفة المعتزلة التي تعتبر من أهم الحركات في تاريخ الفلسفة الاسلامية ، والتي تمثل اتجاهاً عقلياً حراً .

حركة الاعتزال :

من المسائل الهامة التي تعرض لها العقل من قديم ونحاض فيها فلاسفة اليونان والزرذشتيون (المجوس) والنصارى والمسلمون ، مسألة الجبر والاختيار أي هل الانسان حر الارادة يعمل ما يشاء وانه مسؤول عن عمله ، أو أنه مجبور في أعماله وأن القدر هو الذي يحكم جميع أعماله من خير وشر وأن الله كتب له أعمالاً لا بد أن تصدر منه ، وهو الذي قدر له أن يثاب أو يعاقب لأنه عالم بكل شيء وعالم بما يصدر عن كل فرد من خير أو شر .

وقد وردت آيات في القرآن تدل على الجبر : « فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » . وهناك آيات تدل على الاختيار : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . وقد سمي هؤلاء الذين يقولون بأن الانسان حر الارادة وله قدرة على أعماله ، بالقدرية أو المعتزلة ، بينما عرفت الطائفة الاخرى بالجبرية والسلفية .

واختلف العلماء حول سبب تلقيب المعتزلة بهذا اللقب ، فالبعض يرجعه الى اعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد حلقة استاذهما الحسن البصري بسبب اختلافهما معه في بعض المسائل الفقهية . والبعض الآخر يرى أن الاعتزال للفرقة نفسها لأنها اعتزلت أو خالفت الأقوال السابقة وأحدثت رأياً جديداً .

وكيفما كان الأمر فإن الكثيرين من المعتزلة لم يرضوا عن هذه التسمية التي اطلقت عليهم ، وإنما كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد .

أما العدل :

فلأنهم نزهوا الله من أنه كتب على الناس المعاصي ثم عذبهم عليها ، وقالوا بأن الانسان حر فيما يفعل ومن أجل هذا عذب على ما يفعل وهذا عدل ، فالناس

هم الذين يخلقون اعمالهم وانهم من أجل ذلك يثابون أو يعاقبون ولهذا وحده يستحق أن يوصف الله بالعدل .

أما التوحيد :

فلأنهم نفوا أن يكون لله صفات من غير ذاته أو زائدة عن ذاته ، كالسمع والبصر والقدرة والعلم ، بل الله سميع بصير عالم قادر بذاته وليست هناك صفات زائدة عن ذاته والا صار القول تعديداً لله من ناحية وتجسيداً أو تجسيماً له من ناحية أخرى وهذا مستحيل على الله لأنه الله واحد لا شريك له ، ومنزه عن تلك الصفات التي تشبهه بمخلوقاته . لهذا قالوا بضرورة تأويل تلك الصفات وعدم الأخذ بظاهرها .

وكنتيجة طبيعية لنفي الصفات ، نفى المعتزلة أن يكون القرآن صفة من صفات الله ، وقالوا بأن القرآن مخلوق كسائر المخلوقات وليس كلاماً قديماً أزلياً لم يخلقه الله ، لأن الله وصفاته وحدة لا تقبل التجزئة ومحال أن يكون القرآن صفة من صفاته لأنه لو كان كذلك لكان هو ذاته وبقية صفاته شيئاً واحداً ، ونحن نرى أن في القرآن امرأً ونهياً وخبراً واستخباراً ووعداً ووعيداً ، فهذه حقائق مختلفة ، وخصائص متباينة ، ومن المحال أن يكون الواحد متنوعاً الى خواص مختلفة . قال الله تعالى « إنا جعلناه قرآناً عربياً » وقال ايضاً « وجعل الظلمات والنور » فكل ما جعله الله قد خلقه . فالله هو خالق القرآن ومبتدعه ومخترعه .

ولقد نشأت حركة الاعتزال في البصرة وسرعان ما انتشرت في العراق ، وكانت دينية في بادئ الأمر الا انها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة فتكلمت في الامامة وشرط الامام ، وتأثرت بالشيعة في قوهم بحرية الارادة وتأويل النصوص ، كما تأثر بمبادئ المعتزلة بعض خلفاء بني أمية أمثال يزيد بن الوليد ومروان بن محمد . وفي العصر العباسي الاول صار للمعتزلة مدرستان : مدرسة البصرة ، ومدرسة بغداد . واستفاد المعتزلة من الفلسفة اليونانية واستعانوا بها في نظرياتهم ووجدتهم وصبغوها بصبغة اسلامية كما هو واضح في كلام النظام والملاحظ .

فالمعتزلة هم الذين حكموا عقولهم في البحث وخلقوا علم الكلام في الاسلام وهم أول من تسلح من المسلمين بسلاح خصومهم في الدين كاليهود والنصارى والمجوس . ولم تلبث مبادئهم ان انتشرت في العالم الاسلامي حتى اقصى المغرب وقد أشار اليعقوبي والبكري والادريسي الى أن مملكة الأدارسة في فاس كانت موطناً للاعتزال ، وأن قبيلة أوربة البربرية التي ساندت المولى ادريس كانت تدين بالاعتزال وأن عبد الله والد المولى ادريس كان يعتبر في الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة .

والواقع ان دين الاسلام دين توحيد وتنزيه ، والمسلمون عموماً يمتازون بالتوحيد على أساس الاعتقاد بأن « لا اله الا الله وحده لا شريك له » . غير أن أهل السلف من المسلمين وقفوا عند بعض الآيات التي يدل ظاهرها على التجسيم مثل قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » ومثل قوله : « ثم استوى على العرش » ومثل « انه سميع بصير » فقالوا اننا نؤمن بوحدانية الله ولا نذهب وراء ذلك ، وتخرجوا عن ابداء آرائهم وقالوا اننا ان دخلنا في تفصيل ذلك كان تفسيرنا وتأويلنا من كلامنا وليس من كلام الله ، وهذا يعرضنا للخطأ ، فيجب أن نتحرز من ذلك . أما المعتزلة فكانوا أجراً من هؤلاء السلفية فقالوا يجب تأويل هذه الآيات تأويلاً يتفق مع التنزيه ، ولا نكتفي بالايمان الغامض لأن العقل لا يقنع بالغموض وله حق الشرح والتأويل والتوفيق بين الآيات .

من هذا نرى أن الخلاف بين المعتزلة والسلف يقوم على سلطة العقل ومداهها وحدودها ، فالمعتزلة يرون أن لا حدود للعقل ، بينما يرى السلف أن عقولنا اضعف

عن ادراك هذه الصفات الالهية وانه ينبغي أن نؤمن بها كما جاءت والا تعرضنا للزلل^(١).

المأمون والمعتزلة :

كان المأمون يؤيد المعتزلة فيما يقولونه لأنه أكثر حرية وأكثر اعتماداً على العقل ، وكتب رسائل في تأييد آرائهم ، ووافقهم فيما ذهبوا اليه من أن القرآن مخلوق : واستغل نفوذه في حمل الناس على القول بذلك ، فكتب الى والي بغداد يطلب منه امتحان القضاة في مسألة القرآن ، وأن يأخذ على القضاة عهداً بالألا يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن ، وأن يعاقب من لم يقل بهذا الرأي . كذلك شجع المأمون المناظرات الكلامية والبحث العقلي في المسائل الدينية كوسيلة لنشر العلم وازالة الخلاف بين العلماء . لهذا قوي نفوذ العلماء في دوائته ومن أشهرهم ابراهيم النظام (ت ٢٢٠ هـ) وأبو الهذيل العلاف (ت ٢٣٥ هـ) وأبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٤ هـ) .

(١) راجع (ابن حزم : كتاب الفصل في الاصواء والملل والنحل ج٣ ص ١٦٦ وما بعدها) وكذلك (احمد أمين : فجر الاسلام ص ٢٨٨ وما بعدها ، ضحى الاسلام ج٣ ص ٢١ وما بعدها) .